﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [البقرة: 17]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا ذكر اللَّهُ أحوالَ المنافقين وصفاتِهم على وَجْهِ التَّفْصيل، وكانتِ الأمثالُ أَعْلَقَ بالذِّهْنِ وأكْشَفَ لِلْحالِ؛ مثّل سبحانه حالَهم في هُداهم الذي باعوه بالضّلالة في الآية السّابقة بالْأُمُور الحِسّيَّة؛ لِمَا لِلتَّمْثِيل مِن شأنٍ عظيم في توصيل المعنى إلى الْأَذْهَانِ[1]، وقد وَقَعَ المَثَلُ مَوْقِعَ الفذلكةِ من الآية السَّابِقَة، فبعد إجْمالِ حالِ المنافقين في جُملَةٍ واحدة، وَقَعَتْ مَوْقعَ الاعتبار، حَسُنَ تمثيلُ تلك الحالِ بنوعٍ من التَّفصيلِ التَّمثيليّ، لمزيدِ كشفٍ وإمدادِ الذِّهنِ بأنواعٍ إضافيّة من سلوكهم المُرِيب؛ بحيث لا يبقى لمُرتابٍ شَائبةُ شَكٍّ فيهم.

تشبيه تمثيليّ يصف حقيقة المنافقين بحيث لا يبقى لمرتاب شائبة شكٍّ فيهم

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱسْتَوْقَدَ﴾: مادَّة الواوِ والقاف والدَّال تدلُّ على اشْتِعالِ نارٍ[2]، ومِنْهُ الْوَقَدُ؛ وهي النَّار[3]، والوَقُود: وهو ما تُشْعَلُ به النَّارُ مِن حَطَبٍ ونحوِه[4].

والفِعْلُ (وَقَدَ)؛ يُقال: وَقَدَتِ النَّارُ تَقِدُ؛ إذا اشْتَعَلت، وأَوْقَدْتُ: أَشْعَلْتُ[5]، واسْتَوْقَدَ النَّار، بمعنى: أَوْقَدَهَا[6]؛ وهي كذلك في الآية، وقيل معناه: اسْتَوْقَدَ مِن غَيْرِه نارًا يَسْتَضِيءُ بِها[7]، فالسِّين والتَّاء للطَّلَبِ على ما هوَ الغَالِبُ فِي مَعْنَاهَا، والمَعْنَى الأوَّلُ أَرْجَحُ[8].

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/118.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقد).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (وقد).
(4) الفَتَّنيّ، مجمع بحار الأنوار: 5/92.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقد).
(6) الهرويّ، الغريبين: (وقد).
(7) الحِمْيَرِيّ، شمس العلوم: 11/7263.
(8) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/128.

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

مَثَلُ المُنَافِقِين الذينَ أَظْهَرُوا الإيمانَ بالأَقْوَال وليسوا بمؤمنين في الحَقيقة، فانْتَفعوا في الدُّنيا بِحَقْنِ دِمَائهم وسلامَةِ أموالهم، وحصَلَ لَهُمْ شيءٌ مِنَ الأَمْن، ثُمَّ لَمَّا قُبضَت أرواحُهم بالموتِ؛ سُلِبُوا الانتفاعَ بما أظهروه مِنَ الإيمانِ لِعَدَمِ الاعْتِدَادِ به شرعًا، وصاروا في ظُلْمَةِ القَبْرِ والكُفْرِ والنِّفاقِ والمعَاصِي علَى أنواعِها، وبعد ذلك في ظلمة نارِ جهنَّمَ؛ مَثَلُهم في ذلك: كمثَلِ جماعةٍ في ليلةٍ شديدةِ الظُّلْمَةِ أَوْقَدُوا نارًا لِيَنْتَفِعُوا بِهَا اسْتِضَاءَةً واسْتِدْفَاءً، فلَمَّا أضاءَ نُورُها وتبيّن ما حولهَا؛ خَمَدَت وانْطَفَأَت، فبَقوا في شدَّةِ الظُّلمةِ لا يَهْتَدُونَ إلى سَبيلٍ ولا يَرَوْنَ شَيئًا[1].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بَلاغَةُ مَوقِعِ المثلِ من الآياتِ السَّابِقَة:

فَصْلُ الْجُمْلَةِ عَمَّا قَبْلَهَا؛ لِوُقُوعِهَا بَيَانًا وَتَقْرِيرًا لِمَا قَبْلَهَا

فُصِلَتْ جملةُ ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ عمَّا قبلَهَا؛ لِمَا بَيْنَهُمَا مِن كمال الاتِّصالِ، وَوَجْهُه: أنَّ هذه الجملةَ بيانٌ وتقريرٌ لِلْجُمَلِ قَبْلَهَا، فهي بمنزلةِ ذِكْرِ الْحَاصِلِ مِنْ حالِهِمْ وشأنِهِمْ بضَرْبِ هذا المَثَلِ[2].

والقولُ بأنَّ الجملةَ بيانٌ لا يقتضي بالضَّرورةِ وقوعَ إبْهَامٍ في ذِكْرِ أوصاف المُنَافِقِين السابقة؛ لأنَّ البَيَانَ درجاتٌ، إلَّا أنَّ عُرْفَ البلَاغِيِّين التَّعْبِيرُ عن نُكْتَةِ مثلِ هذا الفصلِ بالبَيَانِ؛ والمرادُ ببيانِ الجملةِ في الآية الكريمَة: زيادةُ الكَشْفِ وتَتْمِيمُ البَيَانِ[3].

تَقْرِيرُ التَّشْبِيهِ التَّمثيلِيِّ الوارِدِ في الآيةِ الكريمةِ أَنْ يُقَالَ:

إِيرَادُ التَّشْبِيهِ التَّمْثِيلِيِّ لِإِبْرَازِ الْمَعْقُولِ فِي صُورَةِ الْمَحْسُوسِ؛ زِيَادَةً فِي الْبَيَانِ

حالُ هؤلَاءِ المُنَافِقين في انتفَاعِهِمُ المُؤَقَّتِ في الدُّنيا بِمَا أظهروه مِنَ الإيمَان؛ مِن عِصْمَةِ دِمَائهم وأموالِهم، ومعرفتِهِمْ بمواضعِ الخير والشَّرِّ بما سمِعُوه مِنَ الْوَحْيِ المُنَزَّلِ، ثُمَّ لَمَّا نزَلَ بِهِمُ الموتُ سُلِبُوا

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/186، وابن القيّم، الأمثال في القرآن، ص: 10-9، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 44، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 4.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/302.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/72.

النَّفْعَ، وحلَّت بِهِمُ الخسارَةُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ؛ حالُهُمْ في هذا كَحَال مَنِ اسْتَوْقَدُوا نارًا فانتفعوا بِهَا دفئًا مِنَ البَرْدِ، وإضاءَةً لمواضعِ المخاوفِ وأَمْنِهَا، فإذا بنارِهم تَنْطَفِئُ، وذهب ما فِيهَا مِنَ النَّفْعِ، وبقوا في ظُلُماتٍ لا يُبصرونَ مواضعَ الأذى ولا يَهْتَدُون إلى سبيلٍ لِلنَّجاةِ.

انْتِفَاعُ الْمُنَافِقِينَ بِمَا أَظْهَرُوا مِنَ الْإِسْلَامِ عَارِضٌ، تَعْقُبُهُ خَسَارَةٌ أَبَدِيَّةٌ

وفائدةُ هذا التَّمْثِيلِ: رَفْعُ الحِجَابِ عَنِ الوجُوهِ العقليَّةِ -لِمَا فِيها مِنَ الدِّقَّةِ والخفاء-، وإبرازُها في صُورة المَحْسُوسَات الواضحَةِ، والتّنفيرُ من حالة النّفاق بما فيها من خداعٍ مَكشوف وزَيْفٍ مفضوح.

وَجْهُ تَشْبِيهِ الْمُنَافِقِ بِالْمُسْتَوْقِدِ:

في تَشْبِيهِ المُنَافِقِ بالْمُسْتَوْقِدِ النَّارَ سبعةُ أوجُهٍ[1]:

مَا يُظْهِرُهُ الْمُنَافِقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ يَذْهَبُ بِالْكُلِّيَّةِ إِذَا لَمْ يُتْبَعْ بِتَحْقِيقِهِ فِي الْقَلْبِ

الأوَّلُ: أنَّ مُسْتَوْقِدَ النَّار يدفعُ الأذَى بِهَا، فإذا خَمَدَت وصلَهُ، وكذلك المنافقُ يُعصَمُ دَمُهُ بِالْإِسلام؛ فإذا أظهرَ الكفرَ، حلَّ دَمُهُ.

الثَّاني: أنَّه يَهْتَدِي بالنَّار، فإذا خَمدَت ضلَّ، وكذلك المنافقُ يَهْتَدِي بما أظهرَهُ مِنَ الإسلام، فإذا اطُّلِعَ على حقيقةِ حالِهِ، ذَهَبَتْ عَنْهُ تلكَ الهدايةُ.

الثَّالث: أنَّه إذا لم يُمِدَّهَا بوَقُودٍ انْطَفَأَت، وكذلك المنافقُ إذَا لم يُتْبِعْ ما أظْهرَهُ مِنَ الْإِسْلَامِ بِتَحْقِيقِه في القَلْبِ، ذهب عَنْهُ ذلك بالكُلِّيَّةِ.

الرَّابعُ: أنَّ النُّور الذي يَسْتَضِيءُ به حاصلٌ من غَيْرِه لا من نفسِه؛ فإذا انطفأتِ النَّارُ بَقِيَ في الظُّلمةِ، وكذلك المنافقُ لَمَّا أَظْهَرَ الإسلامَ من غَيْرِ مُوَاطَأَةِ الظَّاهرِ لِلْبَاطِنِ؛ كان نُورُ الْإِيمَانِ عِنْدَهُ كَالْمُسْتَعَارِ.

الخَامِسُ: أنَّ اللّه تعالى شبَّه إقبالَ المنافقين على المُسْلِمين بالإضَاءة؛ لِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنَ النَّفْعِ ودفعِ الضُّرِّ المُعَجَّلَين، وإقبالَهم على المُشْرِكِين بِذَهَابِهَا؛ لِفَوَاتِ تَحْصِيلِ النَّفْعِ ودَفْعِ الضُّرِّ.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/124.

السَّادس: أنَّ اللّه سبحانه ذَكَرَ عَنِ الـمُنَافِقِين قَبْلُ أنَّهمُ اشْتَرَوُا الضَّلالةَ بالهُدَى، ثُمَّ مثَّلَ الهُدَى الذي باعُوهُ بالنُّور الحاصِلِ لِلْمُسْتَوْقِدِ، والضَّلالةَ التي اشْتَرَوْهَا بالظُّلْمَةِ.

السَّابع: أنَّه مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللّهُ تعالى لِلْمُنَافِقِ؛ لأنَّه بإظهارِهِ الإِسْلَامَ يُعْصَمُ دَمُهُ، فَيَمْشِي في حُرْمَةِ الإسلامِ وضِيَائِهِ، فإذَا مَاتَ، سُلِبَ ذلك الضِّياءَ في الدَّار الآخرة وهُوَ أَحْوَجُ ما يكونُ إِلَيْهِ.

دلالة حَرْفِ الْكَافِ:

أَفَادَتِ الْكَافُ في قولِه: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ﴾ التَّشْبِيهَ[1]، بناءً على أنَّ كلمة (مِثْل) بمعنى: الصِّفة والْحَالِ، والتَّقْدِير: مَثَلُهُم كَصِفَةِ الذي اسْتَوْقَدَ نارًا وكحالِهِ.

دلالة الاِسْمِ الْمَوْصُولِ:

ثَـــرَاءُ الـنَّـظْـمِ بِـتَـنَـوُّعِـهِ الاِخْتِمَالِيِّ

وَرَدَ الاسمُ الموصولُ مفردًا في قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى﴾ لا جمعًا كَمَا يَقْتَضِيهِ الظَّاهرُ - لِقَوْلِ اللّه تعالى قبلُ: ﴿مَثَلُهُمْ﴾ -؛ لثلاثةِ أوجهٍ:

الأوَّل: أنَّ ﴿ٱلَّذِى﴾ وإنْ كانَ في اللَّفْظ مفردًا، إلَّا أنَّه اسمٌ موصولٌ يَعُمُّ جميعَ أفرادِهِ؛ فهو في الـمَعْنَى جَمْعٌ؛ فإذا رُوعِيَ اللَّفْظُ أُفْرِدَ، وإذا رُوعِيَ المعنَى؛ جُمِعَ عِنْدَ تَعَدُّد أفرادِهِ الْمُنْدَرِجَةِ تحتَهُ[2].

الثَّاني: أَنَّ ﴿ٱلَّذِى﴾ وَقَعَ وصفًا لِمَا يُفْهَمُ مِنْهُ الجَمْعُ، ثُمَّ حُذف الْمَوْصُوفُ؛ لوجودِ القَرِينَةِ الدّالَّةِ على إفادَتِهِ الجَمْعَ، والتَّقْدِيرُ: مَثَلُهُمْ كمَثَلِ الفَرِيقِ أَوِ الجَمْعِ الذي اسْتَوْقَدَ، ثُمَّ يُعادُ الضَّمِيرُ عَلَيْهِ مُفْرَدًا إذا رُوعِيَ الوصفُ، كما في ﴿ٱسْتَوْقَدَ﴾ و﴿حَوْلَهُۥ﴾، ويُعاد الضَّمِيرُ عَلَيْهِ جَمْعًا إذا رُوعِيَ الـمَوْصُوفُ، كما في ﴿بِنُورِهِمْ﴾، ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾، ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾[3]، وعلى هذا الوجهِ يكونُ في الآيَةِ إيجَازٌ بِالْحَذْفِ؛ لدلالة القرائنِ على الـمَحْذُوفِ.

الثَّالثُ: دلالة ﴿ٱلَّذِى﴾ على الـمُفْرَدِ، كما هو الظَّاهرُ من لَفْظِها؛ لأنَّ صِلَتَهُ: ﴿ٱسْتَوْقَدَ﴾، والـمُسْتَوْقِدُ واحدٌ، وإن كان الْجَمِيعُ مُنْتَفِعًا بِالْإِضَاءَةِ بَعْدُ[4]، وهو الأنسبُ لِجَرَيَانِهِ عَلَى الظَّاهر.

(1) ابن جُزَيّ، التَّسهيل لعلوم التَّنزيل: 1/72.
(2) الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 5/630.
(3) السَّمين، الدُّر المصون: 1/156.
(4) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/62.

دلالة تَنْكِيرِ ﴿نَارًا﴾ عَلَى التَّعْظِيمِ:

نُكِّرتِ النَّارُ في قوله: ﴿ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ لِلتَّعْظِيمِ؛ ويؤيِّدُهُ قولُه قبلُ: ﴿ٱسْتَوْقَدَ﴾ أي: طَلَبَ وُقودَهَا، وهو سُطُوعُهَا وارتفاعُ لَهَبِهَا، ويُعَزِّزُهُ قولُهُ بعدُ: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ لِفَرْطِ الْإِنَارَةِ، وَكَذَا حصولُ الظُّلماتِ بِفَقْدِها[1].

دلالة (مَا) في ﴿مَا حَوْلَهُۥ﴾:

عُمُومُ إِضَاءَةِ الْمَكَانِ وَكَثْرَةُ الْأَشْيَاءِ الْمُضَاءَةِ

(مَا) في قَوْلِهِ ﴿أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ تَحتملُ في إعرابِهَا وَجْهَيْنِ[2]:

الأوَّلُ: أَنْ تَكُونَ مَفْعُولًا به لِلْفِعْلِ ﴿أَضَآءَتْ﴾، وهو فِعْلٌ مُتَعَدٍّ.

والآخَرُ: أن تكُونَ فاعِلًا لِلْفِعْلِ (أضاءَ) بِحَمْلِهِ على أنَّهُ فعل لازِمٌ، وتأنيثُ الفعلِ ﴿أَضَآءَتْ﴾ مع إسنادِهِ لِلْفَاعِلِ (مَا)، حملًا لـ (مَا) علَى معناهَا؛ إذِ الذي حَوْلَ الْمُسْتَوْقِدِ أَمَاكِنُ وأشياءُ، وهي مؤنَّثَةٌ في المعنَى.

وعلى الثَّاني فيه مبالغَةٌ في شدَّةِ الإضاءَةِ؛ حتَّى كأنَّ الأماكنَ نفسَها والأشياءَ المحيطَةَ بالْمُسْتَوْقِدِ صَدَرَ مِنْهَا الضِّياءُ.

ويُؤيِّدُه أنَّ (ما) اسم موصولٌ، وهو يَعُمُّ؛ فالضِّيَاء عَمَّ المكانَ -على الاحْتِمَالَيْنِ السَّابِقَيْنِ-، وهو في الثَّاني أَبْلَغُ، وإنْ كانَ الأوَّلُ أشهرَ.

ويُمْكِنُ حَمْلُ (مَا) على أنَّها نَكِرَةٌ مَوْصُوفَةٌ، والمعنى: فَلَمَّا أضاءت شَيْئًا ثَابِتًا حولَهُ[3]، وتَنْكِيرُها حينئذٍ لِلتَّكْثِير؛ أي: أضاءت شَيْئًا كثيرًا ثابتًا حَوْلَهُ.

دلالة حَرْفِ الْبَاءِ:

دَوَامُ ذَهَابِ نُورِ الْمُنَافِقِينَ؛ فَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ بِحَالٍ

البَاءُ في قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ لِلتَّعْدِيَةِ، بمعنى: أَذْهَبَ اللهُ نورَهُمْ[4].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/50، والخفاجيّ، عناية القاضي: 1/378، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 1/256.

(2) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 1/73.

(3) النَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 1/55.

(4) الفخر الرّازيّ، التّفسير الكبير: 1/96.

وفي التَّعدية بالباءِ دُونَ الْهَمْزَةِ: إشعارٌ بدوامِ هذا الذَّهابِ وملازَمَتِه، بسبب مُلَازمَةِ فاعل الذَّهابِ لهُ، ولِما في الْبَاءِ مِنْ مَعْنَى الْإِمْسَاكِ، كما يُقال: ذهَبَ السُّلْطَانُ بِمَالِه؛ إذا أخذهُ، وما أخذه اللهُ ﷻ فَأَمْسَكَهُ؛ فلا مُرسِلَ له مِنْ بعدِه[1]، وهذا يدلُّ على أنَّ النُّور في الآية لا يزال ذاهبًا عَنْهُمْ، وهذا أغلَظُ في العُقُوبَةِ؛ إذْ لا يُتصوَّرُ رجوعُهُ إِلَيْهِمْ[2].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿نُورِهِمْ﴾ دُونَ (نَارِهِمْ) أَوْ (ضَوْئِهِمْ):

وقع التَّعبير بالنُّور في قولِه ﷻ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ دون (بِنَارِهِمْ)؛ لِقَوْلِه قبلُ: ﴿ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾، و﴿أَضَآءَتْ﴾ أي: النَّارُ؛ لنُكتَتَيْن:

إذهـابُ النُّـورِ إِذْهَـابٌ لَـهُ وللضَّوْءِ

إحداهما: أنَّ المرادَ مِن إيقادِهَا حُصُولُ النُّورِ، فأذهَبَ اللهُ تعَالَى مقصودَهُم مِنْهَا.

ثانيهما: أنَّ النَّار فيهَا إِشْرَاقٌ وإِحْرَاقٌ، فَأَذْهَبَ اللهُ تعالَى ما فيها مِنَ الْإِشْرَاقِ وهُوَ النُّور، وأَبْقَى ما فيها مِنَ الْإِحْرَاقِ وهُوَ النَّاريَّةُ.

ولم يَرِدْ هَهُنَا أيضًا: (ذهَبَ اللهُ بِضَوْئِهِمْ) مع أنَّه قد تقدَّم قولُه: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ﴾؛ وذلك لأنَّ الضَّوْءَ هو زيادةٌ في النُّور، فهو أخصُّ، فلو ذَكَرَ اللهُ تعالى إِذْهَابَ ضَوْئِهم؛ لَتُوُهِّمَ أنَّ إذهابَ الأخصِّ لا يقتضي بالضَّرورةِ إذهابَ الأعمِّ، وأَنَّ المقصود: إذهابُ الضَّوء مع إبقاءِ النُّور! فدُفِعَ ذلك بقولِه تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، فأذهَبَ اللهُ سبحانَهُ النُّور أصلًا، وفي إذهابِه: إِذْهَابٌ لَهُ وَلِزِيَادَتِه[3].

تَنْكِيرُ ﴿ظُلُمَٰتٍ﴾ لِلتَّهْوِيلِ:

شِدَّةُ ضَلَالِ أَهْلِ النِّـفَـاقِ، فهم ليسوا في ظُلمة بل في ظلمات

نُكِّرَتِ الظُّلُمَاتُ في قوله سبحانه: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ للتَّهْوِيل؛ أي: "ظُلُماتٍ هائلة أَدْهَشَتْهُم، بحيث اخْتَلَّت حوَاسُّهم، وانْتَقَصَتْ

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 1/67.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/60.
(3) ابن القيّم، اجتماع الجيوش الإسلاميَّة، ص: 41.

قُوَاهم"[1]، ويؤكِّدُ ذلك: جَمْعُهَا، وإتْبَاعُها بقوله: ﴿لاَّ يُبْصِرُونَ﴾؛ فإنَّ ذلك يدُلُّ على أنَّ الظُّلمةَ بَلَغَتْ مبلغًا يَعْجِز عَنْهُ الوَاصِفُ[2].

الْإِطْنَابُ لِزِيَادَةِ كَشْفِ الْحَالِ التِي آلَ إِلَيْهَا الْمُنَافِقُونَ:

خَيْبَةُ مَسَاعِي أَهْلِ النِّفَاقِ

تضَّمنَ قولُه ﷻ: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ تقريرًا لمضمون الجُمْلَةِ قبلَهُ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾؛ فَإِنَّ مَنِ انعَدَم نورُهُ؛ حلَّت عَلَيْهِ ظُلْمَةٌ، فلا يُبْصِرُ شيئًا، ففي الكَلَامِ إطنابٌ، وفائدتُه: زيادَةُ كَشْفِ الْحَالِ التي صَارُوا إِلَيْهَا؛ "فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ يُفيد أَنَّهم لَمَّا اسْتَوْقَدُوا نَارًا، فَانْطَفَأَتْ؛ انْعَدَمَتِ الفَائِدَةُ، وخابَتِ المَسَاعِي، ولَكِنْ قد يَذْهَلُ السَّامِعُ عمَّا صَارُوا إِلَيْهِ عِنْدَ هَاتِهِ الحالَةِ، فيكُونُ قولُهُ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ تَذْكِيرًا بِذَلِكَ، وتَنْبِيهًا إِلَيْهِ"[3].

حَذْفُ مَفْعُولِ ﴿يُبْصِرُونَ﴾ لِإِفَادَةِ الْعُمُومِ:

المنافقون لا يبصرون دلائل التوحيد، بل هم عُميٌ لا يبصرون أصلًا

فِعْلُ (أَبْصَرَ) مُتَعَدٍّ، ولم يُذْكَرْ مَفْعُولُه في قوله ﷻ: ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾، وفي ذلكَ طَرِيقَتَانِ:

الأُولَى: أَنْ يُقدَّر له مَفْعُولٌ، ويكون عامًّا؛ بناءً على أنَّ حذفَ الْمَعْمُول مُشْعِرٌ بالعُمُوم، والمعنى: لا يُبْصِرُونَ شَيْئًا، لا قَلِيلًا ولا كثيرًا[4].

وَالْأُخْرَى: ألّا يُقدَّر له مفعولٌ أصلًا، من بَابِ تَنْزِيلِ الفعل المُتَعَدِّي منزلةَ اللَّازم[5]، وَهُوَ يَؤُول في المعنى إلى ما قَبْلَهُ[6]، وفيه ضمنًا تشبيه الأعمى بصيرةً بالأعمى بصرًا.

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنْزِيل: 1/51.
(2) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 1/174.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنْوير: 1/310.
(4) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/144.
(5) الرازيّ، التّفسير الكبير: 1/314.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/312.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المِثْلُ وَالشِّبْهُ:

نقل الأزهَرِيُّ عن الفرَّاء قولَهُ: "يُقَال: مَثَلٌ ومِثْلٌ، وشَبَهٌ وشِبْهٌ، بِمَعْنى وَاحِد"[1]، فهذا نصٌّ في القول بترادُفِهِمَا[2].

وفرَّق بَيْنَهُمَا أَبُو هِلَالٍ بِأَنَّ الشِّبْهَ أخصُّ مِنَ الْمِثْلِ؛ مِنْ جهةِ أنَّ الشِّبْهَ يُستعمَل فِيما يُشَاهَدُ، والمِثْلَ أَعَمُّ، فتقول: هذا اللَّوْنُ شِبْهُ هذا اللَّوْنِ، بخلاف القُدْرَةِ -مَثَلًا-، فيقال: هذه القدرةُ مِثْلُ هذه، ولا يقال: شِبْهُهَا[3].

وثَمَّ وجهٌ آخَرُ في الفرق بَيْنَهُمَا: وهو أنَّ (الشِّبْهَ) لا يَقْتَضِي المشاركةَ في كلِّ الوجوهِ، بَلْ يُفِيدُ أصلَ الاشْتِرَاكِ، بخلاف (المِثْلِ) فإنَّها تَقْتَضِيها؛ بمعنى المُطَابَقَةِ[4].

النُّورُ وَالضِّيَاءُ:

فسَّر الخَلِيلُ النُّورَ بالضِّياء[5]، فلعلَّهُ يَرَى تَرَادُفَهُمَا، أو أنَّه أرادَ التَّقريبَ، على عادةِ أَصْحَابِ المعاجم في ذلكَ.

وقيل: إنَّ الضِّياءَ أَعْظَمُ وَأَبْلَغُ، بدَلِيلِ قولِ اللهِ ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: 5]، ومعلومٌ أنَّ الشَّمْسَ أعظمُ نورًا مِنَ الْقَمَرِ[6]، مع ما هو معروفٌ مِنْ أنَّ نُورَهُ مُسْتَمَدٌّ مِنْ نُورِهَا.

وقيلَ الْعَكْسُ؛ بدَلِيلِ قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[7] [النور: 35].

وفرَّق بينهما أَبُو هِلَالٍ بأنَّ الضَّوءَ: ما كان مِنْ ذَاتِ الشَّيءِ المُضِيءِ، والنُّورَ: ما كانَ مُسْتَفَادًا مِن غَيْرِهِ[8]، ولَعَلَّه فرَّق بَيْنَهُمَا بالنَّظر إلى خُصُوصِ الشَّمْسِ والقَمَرِ على النَّحْوِ الوَارِدِ في الآيَةِ المُتَقَدِّمِ ذكرُها.

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مثل).
(2) يُنظر لِلْفَائدة: ابن تيميَّة، الجواب الصَّحيح لمن بدّل دين المسيح: 3/444-445.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 294.
(4) ابن عثيمين، فتح رب البريَّة بتلخيص الحمويَّة، ص: 19.
(5) الخليل، العين: (نور).
(6) ابن الملقِّن، المعين على تَفَهُّم الأربعين، ص: 282.
(7) نجم الدِّين الطُّوفيّ، التَّعيين في شرح الأربعين، ص: 179.
(8) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 332.

ولعلَّ أصحَّ ما قيل في الفرق بَيْنَهُمَا: إنَّ الضِّياء: ضَوْءٌ وحرارةٌ، مِثْلُ ضَوْءِ الشَّمس والسِّراج، وَالنُّورَ: ضوءٌ بِلَا حرارَةٍ، كَنُورِ القَمَرِ[1]، وهذا الذي تَنْتَظِمُ به النُّصوصُ القرآنيَّةُ إن شاء الله.

أمَّا قوَّةُ أحدهما في مقابِلِ الآخَرِ؛ فالغالِبُ فِي الِاسْتِعْمَالِ أَنْ يَكُونَ الضِّياءُ أقوَى، ولكنَّه ليس بِلازِمٍ.

(1) ابن رجب، جامع العلوم والحكم: 2/24-25.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأول، من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة [إشراف مجمع القرآن الكريم،
قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 1 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-52-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 1 : من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-52-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9609262 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»